المروءة

مصادرها المطوية

للدكتور بشر فارس

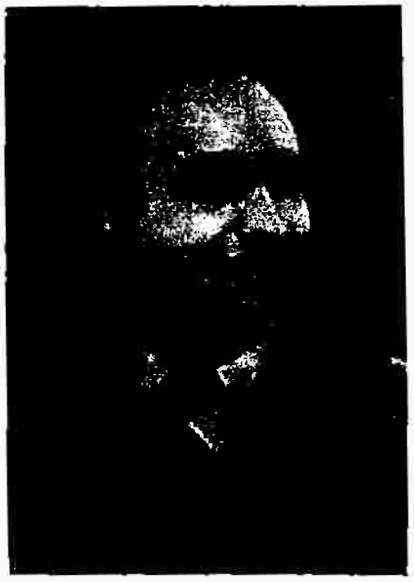

المروءة (أو المروّة) من الألفاظ التي يكثر ورودها في النصوص العربية القديمة ولا سيما في الكتب التي ألفها أدباء العهد العباسي . وهي ، من باب آخر ، من الألفاظ المشتبهة في اللغة العربية لتضارب الأقوال فيها وتدافع التعريفات لها . وقد عظم شأنها على تعاقب الأيام حتى تناولها المتكلمون والمتصوّفة فنزلت منزلة الفضيلة بل منزلة مبدإ « أخلاق » . وذلك ما دفع بعض المستشرقين والشرقيين أن يعدوها ، وهماً ، رأس الفضائل الجاهلية

والذي يبدو لي أن المروءة أفادت ، أولَ أمرها ، الرجولة الحسية أي شدة الأسر ، ثم الرجولة المعنوية أي السجايا الرفيعة ، سجايا السيد مثلاً . ولذلك قرنها نفر ممن تكلموا عليها بالسيادة أو السؤدد . وهذان المفادان : الحسي والمعنوي ، ظلا يتنازعان المروءة ، فاتصل الأول بالحياة المادية ولحق الثاني بمكارم الأخلاق . وقد غلب الجانبُ المعنوي الجانبَ الحسي بفضل الإسلام . (وهنالك أحاديث غير صحيحة في المروءة وعظمة شأنها) وأخذ ذلك الجانب الغالب ينتقل على مدار الأيام من موضع إلى موضع ؛ فدلت المروءة على العفاف والأدب والفضل والإنسانية والسرو ؛ ثم قامت لفظاً واقعاً على محاسن جمة ، على أقلام المحدثين والمتكلمين والأخلاقيين والفقهاء . وأما المتصوفة فأنزلوها منزلة الفتوة ، فتجاورت اللفظتان في ميدان الأخلاقيات المجردة . وقد اتفق لها أن تنحرف إلى هنا وإلى هنا على ألسنة العامة قديماً في الأندلس وحديثاً في مصر والشام

كل هذا الحديث مع ما تحته من التفصيل والتبيين تجده في فصلٍ من فصول كتابٍ من هذا القلم يخرج باللغة العربية بعد أيام ، وعنوانه « مباحث عربية » وعنوان الفصل « المروءة في اللغة والعرف » . وقد انسقت إلى النظر في هذه اللفظة يوم كنت أؤلف « العرض عند عرب الجاهلية » ثم انصرفت إلى استجلاء غوامضها وتمحيص مدلولاتها باستقصاء المصادر والمراجع فنشرت فيها فصلاً في « تكملة دائرة المعارف الاسلامية » البارزة في هولندة (الجزء الرابع) .

وأما هذه المصادر والمراجع فمتشعبة غزيرة ، فيها المطبوع والمخطوط ؛ وفي القراء من أصاب في كتب الأدب أشباه « العقد الفريد » «وعيون الأخبار» و «الموشي» و « أدب الدنيا والدين » أبواباً في المروءة . بل هنالك كتاب أُفرد لها ، عنوانه « مرآة المروءات » لأبي منصور الثعالبي (مصر ١٨٩٨) . ومن المصادر المطوية كتاب « مرآة المروّات » لعلي بن الحسن بن جعدويه ، كتبه للوزير نظام الملك (٤٥٦ — ٤٨٥هـ) وكتاب ابن جعدويه مُجرّى على أسلوب كتاب الثعالبي مع ميل إلى الناحية الدينية بل الصوفية . وقد اهتدى إلى مخطوط ابن جعدويه المستشرق

يمثل درامات الحق فوق مسرح الواقع ، وليس في الأدب المسرحي جميعاً ما هو أروع من إسلام حمزة أو موت حمزة ، وإسلام عمر أو مقتل عمر ، وهجرة محمد من وطنه العاق إلى مُهاجَره الصادق ، وصبر أصحابه على أذى قريش وكفران قريش ، ورمي المنافقين زوج الرسول بالإفك وصبر عائشة لذلك ... وهذه المئات والمئات من مشاهد الدرامة الكبرى التي قام بأدائها الرسول ، والتي رواها وقص فصولها في واقعه، ويسر الله لسانه بذكرها في قرآنه

صلى الله عليك يا رسول الله إذ يسألك أبو بكر : لقد طُفتُ في العرب وسمعت فُصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدَّبك ؟ فتقول : أدَّبني ربي فأحسن تأديبي ! ودِيني مُضَرِيّة

* * *

حاشية : للكلام بقية في رد شبهات الكتاب الأفرنج الذين عابوا أسلوب القرآن بكثرة المتشابه فيه ، وأخذوا على حديث الرسول كثرة الغريب . نتربص ذلك إلى موضعه في الأعداد الآتية

الأستاذ تيشنر F. Taeschner فوصفها فى المجلة الاستشراقية Islamica (الجزء الخامس ١٩٣٢) .

والذى فى نيتى ههنا أن أنشر مصدرين آخرين . أما الأول ففصل فى المروءة والسؤدد من مخطوط عنوانه « كتاب مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب وبدايع الأوصاف وغرايب التشبيهات» لمجهول ، وقد أصبته فى المخطوطات المخزونة فى دار الكتب الوطنية فى ليدن ورقمه ٤٠٩ .

وأما الثانى ففصل فى المروّة من مخطوط مخزون فى أياصوفيا تحت رقم ٢٠٤٩ ويقع فى ص ٢٠٦ . وقد أشار الأستاذ تيشنر إليه فى مقاله المنشور فى المجلة المذكورة ، ثم بعث إلى وسمح لى بنشرها، فله الشكر.

وفى المصدر الأول تعريفات وأقوال فى المروءة على أنها لون من ألوان السيادة وشرط من أشراطها . وأما الثانى ففيه محاولة لرد معنى المروءة إلى المدلول الأصلى من ناحية الاشتقاق ثم نظرة « أخلاقية » فى شأنها ، طرافتها ذلك التفريق الذى بين المرأة والرجل[1].

ا — مخطوط ليدن

(ص ١١) « الفصل السابع فى السودد والمروّة »

« قال النبى صلى الله عليه وسلم : تجافوا عن عقوبة ذوى المروة ما لم يقع حداً . وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه . قيل لقيس ابن عاصم : بِمَ سدت ؟ قال: ببذل الندى، وكف الأذى، ونصر المولى . وكتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى: إن للناس وجوهاً يرفعون حاجة الضعيف فأكرمهم . وقال عليه السلام : أقيلوا الكرامَ عثراتِهم . قال معاوية لابنه يزيد : ما المروة ؟ قال : إذا ابتليت صبرت ، وإذا أنعم عليك شكرت ، وإذا قدرت عفوت . قال : أنت منى ، وأنا منك . وسئل بعض الحكماء عن المروة ، فقال : إسرار ما تحَب [تحِب] أن تعلن ، ومواطاة القلب اللسان. وقيل : المروة ألا تعمل شيئاً فى السر تستحى منه فى العلانية . يقال : كان سَلم بن نوفل سيد كنانة فجرح رجل ابنه ، فأتى به ، فقال له : ما أمنك (ص ١١ م) من انتقامى ؟ قال : فلم سوّدناك إلا أن تكظم الغيظ وتعفو عن الجار وتحلم عن الجاهل وتحتمل المكروه ؟ فخلّى عنه . دخل جُذيم بن أوس الطائى على معاوية ، فقال : من سيدكم اليوم ؟ قال: من احتمل شتمنا، وأعطى سايلنا [سائلنا] وأغضى عن جاهلنا، واغتفر ضَرَبَنا [ضَربْنا] إياه بعصيّنا [بعصيّنا] . وقال عدّى بن حاتم : السيد ، الأحمق فى ماله ، ذليل [الذليل] فى عرضه ، المطرحُ لحقده ، المعنّى [المعنىّ] بأمر عامته . يقال الارتقاء إلى السودد صعب ، والانحطاط إلى الدّناءة [الدناءة] سهل. قال عمر بن عبد العزيز لرجل: من سيّدقومك؟ قال : أنا ، قال : ولو كنت كذا ما قلته . مال [قال] معاوية لوفد : كيف كان قطبة بن زيد فيكم؟ قالوا: كان إذا حضر أطعناه، وإذا غاب شتمناه . قال: هذا والله السودد المحض . قال عمرو بن عبيد : لا يكمل مروة الرجل فى دينه حتى يكون فيه ثلاث خلال: يقطع رجاه مما فى أيدى الناس ، ويستمع الأذى فيحتمل ، ويحب للناس ما يحبّ [يحبُّ] لنفسه. قال ابن عمر: إنا معاشر قريش نعد الحلم والجود السودد، ونعد العفاف وإصلاح المال المروة . سأل معاوية (ص ١٢) الحسن بن على رضى الله عنه — عن المروّة . فقال : حفظ الرجل دينه وإحرازه نفسَه من الدَّنَس وقيامه لضيفه وأداء [أداء] الحقوق وإفشاء السلام . بعث رسول من خراسان إلى سَوار بن عبد الله القاضى يسأله عن المروة ما هى ، فقال الإنصاف والتفضل . وقال على رضى الله عنه : ثلاث من كن فيه استوجب بهن أربعاً [ثلثاً تصويب فى النص] من إذا حدث الناس لم يكذبهم ، وإذا وعدهم لم يخلفهم [يخلفهم]، وإذا خالطهم لم يظلمهم؛ فإذا فعل ذلك فقدوجبت إخوته وكملت مروته وحرمت غيبته . قال ابن عمر : ما رأيت أحداً أسود من معاوية ، قيل : يا أبا عبد الرحمن : أهو خير من أبى بكر وعمر ؟ قال : هما خير منه، وهو أسود منهما . قيل له: هو أسود أم عثمان؟ قال : إن عثمان لسيّد ، ومعاوية أسود منه . »

ب مخطوط ايا صوفيا

وأما المروة فلها اشتقاقان من أحدهما يقتضى أن يكون هى والإنسانية متقارنتين ، وهو أن يجعَل من قولهم : مَرُؤ الطعام وامرأة [وأمرأه] إذا تخصص بالمرى لموافقته الطبعَ ، فكأنها اسم الأخلاق والأفعال التى تقبلها [تقبلها] النفوس السليمة. فعلى هذا

(١) ما يقع تحت هاتين العلامتين ( ) يفيد نصا مزيداً من عندى وما يقع تحت هاتين العلامتين [ ] يفيد تصويبا من عندى لمخطوط ليدن ومن عند الأستاذ تيشنر لمخطوط ايا صوفيا .